الفصل الأول

تقديم

ان نظام الطبقة المترفة يوجد على أتمه فى المراحل العليا لأية ثقافة همجية ، كما كانت الحال مثلا فى أوربا الاقطاعية أو اليابان الاقطاعية • ففى مثل هذه المجتمعات تراعى الفوارق بين الطبقات بدقة شديدة ، وأهم مظهر ذى مغزى اقتصادى واضح من مظاهر الفوارق بين الطبقات هو التمييز بين الاعمال التى تختص بها كل طبقة من طبقات المجتمع العديدة . فالطبقات العليا هى بحكم العرف معفاة أو ممنوعة من ممارسة المهن الصناعية ، لانها تدخر لمهن خاصة ذات نصيب خاص من التشريف . ومن أشهر الاعمال التى ينظر اليها فى اى مجتمع اقطاعى نظرة الشرف والاجلال فن الحرب ، وتأتى بعده مباشرة الوظائف الدينية . فاذا لم يكن المجتمع الهمجى مجتمعا حربيا الى حد كبير فقد يكون للوظائف الدينية مكان الصدارة ثم يأتى فن الحرب بعدها فى المحل الثانى . ولكن القاعدة تسرى فى الحالين دون استثناء يذكر ، وهى أن الطبقات الراقية ، سواء من رجال الدين أو رجال الحرب ، معفاة من القيام بالاعمال الصناعية وهذا الاعفاء هو التعبير الاقتصادى عن مركزها الاجتماعى الممتاز • ونستطيع ان نضرب من الهند البراهمية مثلا يوضح اعفاء هاتين الطبقتين من الأعمال اليدوية • اننا نجد فى المجتمعات التى تنتمى الى الثقافة الهمجية الراقية تمييزا شديدا بين الاقسام المختلفة التى تنقسم اليها الطبقات التى يمكن ان نطلق عليها اسم الطبقات المرفهة ، وهناك بالمثل فروق شديدة بين المهن التى يمتهنها كل قسم منها • والطبقات المرفهة على العموم تشمل طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين وعددا كبيرا ممن يسيرون فى ركابهم • والمهن التى يمتهنها كل قسم تتنوع أيضا بنفس الدرجة ، ولكنها جميعا تشترك فى صفة عامة هى انها لا تمت الى العمل اليدوى بأية صلة ، وهذه المهن غير الصناعية يمكن أن نجملها فنقول انها أعمال الحكم والحرب والدين والرياضة •

وتنشأ الطبقة المرفهة فى طور مبكر من أطوار الهمجية ، وان لم يكن هو أقدم أطوارها ولكنها توجد فى صورة أقل تمايزا ، فلا الفروق بين الطبقات ولا التمييز بين أنواع المهن الخاصة بالطبقات المرفهة توجد بهذه الدرجة من الدقة والتشابك • ونستطيع أن نشاهد هذا الطور من أطوار التقدم واضحا بين سكان جزر بولينيزيا عامة ، مع فارق واحد هو أنه نظرا لانعدام أمكانيات الصيدعلى نطاق واسع فان مهنة الصيد لم تكن تحتل مكان الشرف فى نظام حياتهم • وكذلك نجد فى المجتمع الايسلندى على عهد الساجا مثالا جيدا من أمثلة هذا النظام . ففى مثل هذا المجتمع توجد حدود صارمة بين الطبقات وبين المهن الخاصة بكل طبقة ، فالاعمال اليدوية والصناعية وكل ما له صلة بالاعمال اليومية التى يمارسها الناس للحصول على القوت ، كلها من عمل الطبقة الدنيا دون غيرها . وهذه الطبقة الدنيا تشمل الرقيق ومن اليهم من الاتباع ، كما تشمل فى العادة جميع النساء • فاذا كان هناك عدة درجات للارستقراطية فان نساء الطبقة العليا يعفين عادة من الاعمال الصناعية أو على الاقل من النوع الشاق من الاعمال اليدوية • أما رجال الطبقات العليا فلا يعفون من الاعمال اليدوية فحسب بل هى محرمة عليهم ايضا بمقتضى التقاليد الموروثة ، وانواع الاعمال التى يجوز لهم ممارستها محدودة تحديدا دقيقا ، وهى كما سبق أن ذكرنا ، أعمال الحكم والحرب والدين والرياضة • وهذه السبل الأربع من سبل النشاط تتحكم فى نظام حياة الطبقة العليا .

أما الاشخاص ذوو المراكز السامية كالملوك والزعماء فان هذه هى انواع النشاط الوحيدة التى يسمح لهم العرف والفروق فى المجتمع بممارستها . بل الواقع ان المجتمعات التى تقدم فيها هذا النظام تعتبر الرياضة من الأمور التى لايجوز أن يمارسها ذوو المراكز السامية • أما الذين ينتمون الى ادنى درجات الطبقة المترفة فيمكنهم امتهان مهن أخرى معينة ، ولكنها جميعا تعتبر مهنا ثانوية او احتياطية لمهنة او اخرى من المهن التى تمتاز بها الطبقة المترفة • ومن هذه المهن الثانوية مثلا صناعة الاسلحة والمعدات الحربية وقوارب الحرب والعناية بها ، واعداد الخيل والكلاب والصقور للصيد ورعايتها ، واعداد الادوات المقدسة ، وما الى ذلك . اما الطبقات الدنيا فلا يحل لها ممارسة مثل هذه الأعمال الشرفية الثانوية الا ما كان منها ذا صفة صناعية لاجدال فيها ولا تمت بغير سبب بعيد للاعمال التى تتميز بها الطبقة العليا •

فاذا رجعنا الى الوراء خطوة قبل ظهور الثقافة الهمجية العليا ونظرنا الى درجات من الهمجية أدنى منها فلن نجد الطبقة المترفة قد بلغت تلك الدرجة من التطور ، لكن هذه الهمجية الدنيا توضح العادات والدوافع

والظروف التى نشأ منها نظام الطبقات المترفة ، وتعين الخطـوات الاولى لظهوره • والقبائل الرحل التى تعيش على القنص فى جهات مختلفة مـن العالم توضح هذا المظهر البدائى من مظاهر التمييزبين الطبقات . واية قبيلة من القبائل التى تعيش على القنص فى أمريكا الشمالية تقدم لنا مثلا ملائما يوضح هذه الحقيقة • وليس بوسعنا أن نقول ان هذه القبائل بها طبقات مترفة محددة • لكن هناك تمييزا فى الوظائف وتمييزا بين الطبقـات على أساس هذا التفريق ، لكن اعفاء الطبقة العليا من العمل لم يتطور الى الحد الذى يجعلنا فى حل من تسميتها « الطبقة المترفة » • والقبائل التى تعيش على هذا المستوى الاقتصادى قد وصلت فى التمييز الاقتصادى الى الدرجة التى جعلتها تضع حدا فاصلا بين الاعمال التى يمارسهـــا الرجل والتى تمارسها المرأة ، وهو تمييز ذو طبيعة تبعث على الحقد ، فان النســـاء فى جميع هذه القبائل تقريبا يقتصر عملهن بحكم التقاليد الموروثة على تلـك المهن التى هى نواة للأعمال الصناعية التى تظهر فى الطور التالى من أطوار التقدم ، بينما الرجال يحرم عليهم اداء هذه الاعمال الشـــاقة ويدخرون للحرب والقنص والرياضة والوظائف الدينية • والناس فى العادة يراعون هذه الفروق مراعاة دقيقة •

وتقسيم العمل على هذه الصورة يتفق والتمييز بين الطبقة الكادحـه والطبقة المترفة كما يظهر فى الثقافةالهمجية العليا ،وكلما زاد تنوع الأعمال وزاد التخصص فيها زادت حدة الخط الفاصل بين الأعمال الصناعية وغير الصناعية . ومهنة الرجل كما هى محددة فى أطوار الهمجية الاولى ليست هى الاصل الذى نشأ عنه فيما بعد أى تقدم ملحوظ نحو الصناعة . فهذه المهنة لايبقى لها أثر فى مراحل التطور الأخيرة الا فى المهن التى لا تعتبـر صناعية ــ كالحرب والسياسة والرياضة والدراسة والوظائف الدينية . وليس لهذه القاعدة استثناءات تستحق الذكر سوى بعض الأعمال المتعلقة بصيد السمك وبعض الأعمال البسيطة التى ليست بالتأكيد أعمالاصناعية، كصناعة الأسلحة واللعب وأدوات الرياضة • والحقيقة أن جميع الأعمـال الصناعية قد نشأت عن الأعمال التى كانت الجمـــاعات البـدائية تختص بهـا النســـاء •

والأعمال التى يقوم بها الرجال فى الثقافات الهمجية لا تقـل أهمية لحياة الجماعة عن الأعمال التى تؤديها النساء ، بل ان عمل الرجال قد يسهم فى توفير الطعام والضرورات الأخرى التى تستهلكها الجماعة بنفس القـدر الذى تسهم به أعمال النساء . والحقيقة أن عمل الرجال ذو طابع انتاجى واضح الى حد ان كتب الاقتصاد تشير الى عملية القنص بصفتها نوعا من الصناعة البدائية ، لكن صاحب الثقافة البدائية لا ينظر الى الامر هكذا ،

فهو فى نظر نفسه ليس عاملا ، ومن هنا لايعتبر نفسه فى مرتبة واحدة مع النساء ، ولا يعتبر عمله من نوع الأعمال والصناعات المهنية التى تؤديها النساء بحيث يصح الخلط بينها وبين أعمال النساء · فهناك فى جميع المجتمعات الهمجية شعور عميق بالتمييز بين أعمال الرجال وأعمال النساء فان عمل الرجل قد يساعد على توفير الطعام للمجموع ، ولكنه يشعر انذلك يتم عن طريق امتياز ومهارة من نوع لا يمكن المقارنة بينه وبين أعمال المرأة الروتينية التى لا تحتاج الى مهارة ، دون أن تعتبر هذه المقارنة اهانة للرجال .

فاذا رجعنا الى الوراء فى سلم التقدم الثقافى ـ بين الجماعات المتوحشة ـ وجدنا هذا التفريق أقل احكاما ووجدنا التمييز المشير بين الطبقات وبين المهن أقل استقرارا وأقل تحديدا · ومن الصعب أن نجد جماعات متوحشة بدائية خالصة · فقليل فقط من هذه المجتمعات أو الجماعات التى تسمى متوحشة لا يبدو انها بلغت فى وقت من الاوقات مرحلة ثقافية أرقى مما هى عليه الآن ثم ارتدت بعد ذلك الى مرتبة ثقافية ادنى . لكن هناك جماعات يبدو أن بعضها لم يتعرض لمثل هذا الارتداد ، لا تزال تتمسك بآثار التوحش البدائى ، وهؤلاء تختلف ثقافتهم عن ثقافة المجتمعات الهمجية فى أنها تخلو من طبقة مترفة كما تخلو الى حد كبير من الاتجاهات الروحية التى يقوم عليها نظام طبقة المترفين · وهذه المجتمعات الهمجية البدائية التى لا تعترف بالتدرج الطبقى لا تزيد على نسبة تافهة من مجموع الجنس البشرى · ومن أحسن الأمثلة التى يمكن أن نجدها لمثل هذا التطور الثقافى هى تلك التى نجدها فى قبائل اندامان وقبائل التودا التى تقطن تلال نلجيرى · فنظم الحياة بين هذه القبائل عندما عرفهم الأوربيون أول مرة تبدو متشابهة تماما من حيث انعدام الطبقة المترفة · وهناك مثل آخر نستطيع ذكره هو مثل قبائل الاينو بجزيرة يزو ، كما نستطيع أيضا أن نذكر بعض قبائل البشمن والاسكيمو ، ولو أننا غير متأكدين من انعدام الطبقة المترفة بينهم ، ونستطيع أن نضيف اليهم أيضا بعض جماعات البويبلو Pueblo على اننا أيضا أقل تأكدا فيما يتعلق بهم · ومعظم المجتمعات التى ذكرناها هنا، ان لم تكن جميعها ، قد تكون أمثلة لمجتمعات تدهورت من مراحل البربرية الراقية ، لا امثلة لمجتمعات ذات ثقافة لم ترتفع قط فوق مستواها الحاضر. فاذا كان الأمر كذلك فان فى ضربنا المثل بهم شيئا من التساهل ، ولكنهم مع ذلك قد يكونون شاهدا يؤيد نفس الراى كما لو كانوا فعلا من الشعوب البدائية .

هذه المجتمعات التى تخلو من طبقة مترفة محددة يشبه بعضها بعضا أيضا فى مظاهر معينة تتعلق بكيانها الاجتماعى وطرق حياتها ، فهى

تعيش فى جماعات قليلة العدد ذات نظام بسيط يرجع فى نشأته الى عهود قديمة ، وهم على العموم مسالمون وغير رحل وفقراء وليست الملكية الفردية من المظاهر السائدة فى نظامهم الاقتصادى ، وهذا لا يعنى بالضرورة ان هذه الجماعات هى أصغر الجماعات الموجودة فى الوقت الحاضر ، أو أن كيانهم الاجتماعى هو من جميع الوجوه اقلها تمييزا بين الطبقات . وكذلك لا يعنى هذا أن هذه الجماعات تشمل بالضرورة جميع المجتمعات البدائية التى لا تعرف نظاما محددا للملكية الفردية . لكن علينا أن نلاحظ ان هذه الجماعة يبدو أنها تشمل أكثر الجماعات البدائية حبا للسلام — بل وربما تشمل جميع الجماعات البشرية التى تمتاز بحبها للسلام . والحقيقة أن أبرز طابع عام يميز أفراد مثل هذه المجتمعات هو نوع معين من العجز اللطيف عندما يقابلهم عدو بالقوة أو الخديعة .

والادلة التى نستطيع ان نستمدها من أحوال الجماعات التى لا تزال فى ادنى مراحل التقدم ومن ملامح ثقافتها تبين أن نظام الطبقة المترفة قد ظهر بالتدرج أثناء تحولها من الوحشية البدائية الى الهمجية ، أو بتعبير ادق ، أثناءالانتقال من الحياة السلمية الى الحياة الحربية . ويبدو ان الظروف التى أوجبت هذا التحول الشامل هى :

١ — ان الجماعات كانت لها قبل ذلك طرق خاصة فى الحياة (فى الحرب أو فى قنص الحيوانات الضخمة أو كليهما) أى أن الرجال وهمالذين تتكون منهم نواة الطبقة المترفة فى مثل هذه الاحوال ، لا بد أنهم كانوا قبل ذلك قد اعتادوا البطش بغيرهم سواء بالقوة أو بالخديعة .

٢ — ان موارد العيش لا بد أن تكون ميسورة بدرجة تسمح باعفاء نسبة كبيرة من الجماعة من القيام بأعمال روتينية دائمة . وظهور طبقة من المترفين هو وليد تفرقة سابقة بين أنواع المهن ينظر الناس بمقتضاها الى بعض المهن على أنها محترمة والى البعض الآخر على انها لا تستحق الاحترام . فالمهن التى تستحق الاحترام كانت — من وجهة نظر هذا التفريق القديم — هى التى نستطيع أن نسميها أعمالا بطولية ، أما التى لم تكن تستحق الاحترام فهى الاعمال اليومية الضرورية التى لا تنطوى على اى عنصر من عناصر البطولة .

هذا التمييز ليس له فى المجتمع الصناعى الحديث الا مغزى ضئيل ؛ ومن اجل هذا لم يلق من كتاب الاقتصاد اهتماما يذكر . وهو اذا نظرنا اليه فى ضوء الآراء الحديثة التى سار على هديها الجدل الاقتصادى ، يبدو شكليا وغير ذى موضوع ، ولكنه رغم ذلك يتشبث بالاستمرار فى الحياة الحديثة ، يشهد على ذلك ما نراه — على سبيل المثال — من عزوفنا التقليدى

عن الأعمال اليدوية . وهو تمييز ذو طابع شخصي – طابع التعالى وطابع الضعة . وفي المراحل الأولى للثقافة ، عندما كانت قوة الفرد الذاتية ذات أثر مباشر وواضح فى تشكيل مجرى الحوادث ، كان عنصر القوة ذا أثر أكبر فى طرق الحياة اليومية ، وكان اهتمام الناس يتركز حول هذه الحقيقة الى درجة أكبر . ومن هنا كان يبدو أن التفريق القائم على هذا الأساس أكثر حتمية وأشد تحديدا للسلطة والنفوذ مما هى الحال فى الوقت الحاضر . وعلى هذا فان ذلك التمييز – بصفته حقيقة واقعة من حقائق التطور – هو تمييز حقيقى يقوم على دعائم صحيحة وثابتة .

ان الاساس الذى يقوم عليه فى العادة التمييز بين الحقائق يتغير تبعا لتغير الزاوية التى ينظر منها عادة الى الحقائق ، ومظاهر الحقائق التى بين ايدينا تزداد وضوحا وأهمية كلما تركز حولها اهتمام الناس فى اى وقت من الأوقات . وأى أساس معين من الأسس التى يقوم عليها ذلك التمييز يبدو غير واقعى فى نظر أى فرد اذا نظر اليها من زاوية مختلفة وقومها من أجـل غرض مختلف ، فان عادة التمييز بين الأغراض المتباينة واتجاهات النشاط وتبويبها موجودة بالضرورة فى كل زمان ومكان ، اذ لاغنى عنها لكى يرسم الانسان طريقه فى الحياة . ووجهة النظر المعينة او الطابع المعين الذى يقع عليه اختيارنا النهائى فى تبويب حقائق الحياة يتوقف على المصلحـة التى من أجلها نقوم بالتمييز بين الحقائق . وعلى ذلك فان الأسـس التى نبنى عليها ذلك التمييز ، وكذلك القاعدة التى نسير عليها فى تبويب الحقائق ، تتغير باستمرار كلما زاد نمو الثقافة ، لأن الهدف الذى من أجله نتمسـك بحقائق الحياة يتغير ، وكذلك تتغير بتغيره وجهة نظرنا اليها ، حتى أن المظاهر الخاصة البارزة التى تمتاز بها مهنة ما أو وظيفة أو طبقة اجتماعية فى مرحلة معينة من مراحل الثقافة ، لا تبقى لها نفس الاهمية النسبية عندما يتغـير الهدف من تبويبها فى مرحلة ثقافية تالية .

لكن تغير القيم ووجهات النظر لا يحدث الا بالتدريج ، ويندر أن يؤدى الى تخلى الانسان عن راى او الى مقاومته لهذا الراى . والناس لا يزالون كعادتهم يفرقون بين الأعمال الصناعية وغير الصناعية ، وهـذا التمييـز الحديث هو مظهر متطور من تمييز الجماعات المتبربرة بين الأعمال التى لها طابع البطولة وبين الاعمال الروتينية العادية . فان الناس لا يزالون يشعرون ان أعمالا كالحرب والسياسة والوظائف الرئيسـية والترفيـه عن الجماهير كلها أعمال تختلف من أساسها عن الاعمال التى تتعلق بانتـــاج ضرورات الحياة المادية . على ان الخط الدقيق الفاصل بين هذين النوعين من المهن ليس كما كان فى نظم الحياة الهمجية الأولى ، ولكن التمييز الاجمالى بينهما لا يزال عالقا باذهان الناس لم يتخلوا عنه تماما .

والحق أن التمييز الذى يحس به الناس فى الوقت الحاضر يقضى بأن اى مجهود لايمكن أن يعتبر صناعيا الا اذا كان الغرض النهائى منه استخدام أدوات غير بشرية ، ولهذا لايعتبرون استخدام الانسان للانسان من الأعمال الصناعية ، ولكن كل جهد يوجه الى رفع مستوى الحياة البشرية عن طريق استغلال الموارد غير البشرية التى تتوفر فى البيئة يعتبر عملا صناعيا . و « غلبة الانسان على الطبيعة » تعتبر فى نظر الاقتصاديين الذين لا يزالون يحتفظون بالآراء التقليدية القديمة انها هى الحقيقة التى تميز الانتاجية الصناعية ، وهذه السيطرة الصناعية على الطبيعة تشمل فى رايهم سيطرة الانسان على حياة الحيوان وعلى قوى سائر العناصر ، وهم بهذا يرسمون خطا يفصل بين الانسان وبين المملكة الحيوانية ·

وهذا الخط لايرسم — فى أوقات أخرى وبين أقوام طبعوا على مفاهيم تختلف عن مفاهيمنا — لا يرسم كما نرسمه نحن اليوم تماما · ففى طرائق الحياة البربرية أو الهمجية يرسم هذا الخط فى موضع آخر وبطريقة مختلفة . وهناك بين جميع المجتمعات التى تعيش فى ظل الثقافة البربرية شعور حاد بالتعارض بين مجموعتين كبيرتين من الظاهرات يضع الرجل المتبربر نفسه داخل احداهما ، بينما الاخرى تشمل فى نظره المواد اللازمة لحفظ الحياة · فهناك تعارض محسوس بين الظاهرات الاقتصادية وغير الاقتصادية ، ولكنهم لا يفهمونه بمعناه الحديث ، فهو ليس تعارضا بين الانسان وبين مملكة الحيوان ، بل الأشياء الناشطة والأشياء الجامدة ·

وبما كان من المبالغة فى الاحتياط الآن ان نوضح أن عقيدة المتبربرين التى قصدنا التعبير عنها هنا بكلمة « ناشطة » لا تحمل نفس المعنى الذى قد ينطوى عليه لفظ كائنات « حية » فان الأول لا يشمل جميع الكائنات الحية ، مع انه يشمل كثيرا من الكائنات غير الحية . فبعض الظاهرات الطبيعية المحسوسة كالعواصف والأمراض ومساقط المياه تعتبر فى نظرهم اشياء ناشطة بينما الفواكه والعشب ، بل وبعض الكائنات الصغيرة كذباب المنازل والديدان وبعض القوارض والغنم لا تعتبر من الكائنات « الناشطة » الا اذا ذكرت مجتمعة . وهذا الاصطلاح كما نستعمله هنا لا يعنى بالضرورة ان للكائن روحا تحل فيه . وعلى ذلك فان مفهوم مثل هذه الاشياء لدى المتبربرين أو المتوحشين ينم عن الأشياء ذات القوة التى تنعكس فى قدرتها على خلق الحركة . وفى نطاق هذا المفهوم يدخل عدد كبير منوع من المواد والظاهرات الطبيعية . ومثل هذا التمييز بين الأشياء « الجامدة » والأشياء « الناشطة » لايزال مستقرا فى طرق تفكير الأشخاص الذين لا يتدبرون ، ولا تزال ذات تأثير عميق على النظرية السائدة عن الحياة البشرية والعمليات

الطبيعية لكنها لا تتغلغل فى حياتنـــا اليومية التغلغل الواضح فى حيـــاة الجماعاتالتى لا تزال فى المراحل الاولى من مراحل ثقافتها وعقائدها ، ولا التغلغل الذى يجعل له عليها عواقب فعلية بعيدة الاثر ٠

والمتبربرون يرون أن « تصنيع » المواد التى توفرها لهم الطبيعـــة « الجامدة » واستخدامها يدخلان فى باب من أبواب النشاط على مستوى يختلف اختلافا تاما عن علاقته بالأشياء والقوى « الناشطة » ، وقد يكــون الخط الفاصل بين الاثنين غامضا ومتغيرا ، ولكن التمييز العام بينهما حقيقى وفعال بدرجة تجعله ذا أثر كبير فى نظم الحياة بين هؤلاء الناس . ويلعب خيال المتبربر دوره فينسب الى مجموعة الأشياء التى يعتبرها « ناشطة » أن نشاطها هادف أو غائى ٠ وهذا الاعتقاد الذى يقول بأن كل نشاط انما يبذل لتحقيق غرض معين هو الذى يجعل من أية مادة أو أية ظاهرة حقيقة « ناشطة » ٠ وأينما التقى المتوحش أو المتبربر الذى لايزال على طبيعتـه بنوع من نشاط القوى الطبيعية يفرض نفسه عليه ، فانه يفسره على النحو الذى يستطيع أن يدركه ــ التفسير الذى يقترن فى قرارة نفسه بالنشاط الذى نقوم هو به . وعلى ذلك يعتبر مثل هذا النشاط فى نظره شيئا شبيها بعمل الانسان ويعتبر الأشياء « الناشطة » من هذه الناحية شبيهة بالعامل البشرى ٠ والظواهر التى لها هذه الخاصية ــ لاسيما ماكان منها ذا طبيعة غامضة أو محيرة بدرجة ملحوظة ــ يجب مقابلتها بروح مختلفة وباستعداد من نوع يختلف عن النوع اللازم لمقابلة الاشياء « الجامدة » . والنجاح فى مقاومة مثل هذه الظواهر هو نوع من البطولة أكثر منه نوعا من الصناعة ، وهو اثبات للشجاعة لا للمهارة فى العمل .

وعلى هدى هذا التمييز الساذج بين الأشياء « الجامدة » والأشيـاء « الناشطة » يميل نشاط المجتمعات البدائية الى ان ينقسم قسمين نستطيع أن نسميهما فى عرف الاصطلاح الحديث «أعمال البطولة » و «أعمال الصناعة» وتعنى الصناعة فى هذه الحالة كل مجهود يتجه الى خلق شىء جديد بغرض جديد يكتسبه على يدى صانعها الذى يشـكلها من مادة « جامدة » غير « ناشطة » ، بينما تتضمن أعمال البطولة ، من حيث أنها تتمخض عن شىء مفيد لمن يؤديها ، تحويل الطاقات التى كان يوجهها قبل ذلك عامل مختلف الى غرض ما ، الى خدمة أهداف القائم بالعمل البطولى ٠ ونحن لانزال حتى الآن نتكلم عن المادة الخام بشىء من ادراك المتبربرين لما ينطوى عليه الاصطلاح من مغزى عميق ٠

والتمييز بين أعمال البطولة والاعمال الكادحة يتلاءم مع فرق موجود بين الجنسين فالجنسان يختلفان ، لا فى القامة والقوة العضلية فحسب ، بل

قد يكون اختلافهما فى الطبع أكثر وضوحا ، ولا بد أن هذا الاختلاف قد ادى فى العصور القديمة الى تقسيم العمل بين الجنسين على اساسه ، فعهد الى الرجال القيام بجميع أوجه النشاط التى تحتاج الى نوع من البطولة ، اذ أنهم أقوى بنية واضخم جثة وأقدر على تحمل الجهد العنيف الفجائى ، واكثر ميلا لحماية حقوقهم وبذل الجهد فى سبيل التفوق والمباداة بالعدوان. والفرق بين الجنسين فى ضخامة الجثة والخصائص الفسيولوجيــة وفى الطباع قد يكون طفيفا بين أفراد الجماعات البدائية . والواقع أنه يبــدو قليلا نسبيا وعديم الأثر بين بعض المجتمعات القديمة التى نعرفها ، كالقبائل التى تسكن جزر اندامان مثلا . لكن ما ان يبدأ تفريق فى الاختصـــاص قائم على أساس الفروق فى البنية وعلى التناحر بين الجنسين حتى تبدأ الفروق الاصلية بين الجنسين فى الازدياد ، وحينئذ تبدأ عملية جديدة تؤدى الى اكتساب مزيد من الصفات الجديدة التى تجعل الفرد أكثر صلاحية للتقسيم الجديد للعمل ، لا سيما اذا كانت ظروف البيئة أو كان الحيـــوان الذى تعيش عليه الجماعة بحيث تتطلب استخدام الانسان لأقوى مواهبــــه . فمطاردة الانسان باستمرار لحيوانات الصيد الكبرى تتطلب كثيرا من صفات الرجولة كقوة البنيـة وسرعة الحركة وشدة المراس ، وهى لهذا لا يمكن الا ان تعجل بزيادة التفريق بين أعمال كل من الجنسين . فاذا حدث أى اتصال عدائى بين الجماعة وبين جماعات أخرى فسرعان مايتخذ التفريق فى العمل بين الجنسين مظهرا جديدا هو التمييز بين أعمال البطولة وأعمال الصناعة.

وينتهى الامر فى مثل هذه الجماعات القديمة التى تعيش على القنص بان يضطلع الرجال القادرون بالحرب وبالقنص ، بينما تقوم النساء بما قد يكون هناك من عمل آخر يتطلب الأداء ــ ولهذا كان سائر أفراد الجماعـة الذين لايصلحون لأعمال الرجال يوضعون فيما يختص بهذه الناحيــة ، فى طبقة واحدة مع النســاء . لكن القنص والحرب اللذين يقوم بهما الرجــال يشتركان فى صفة عامة ، فكلاهما بطبيعته يحتاج الى التفكير والتخطيط ، والقانص والمحارب كلاهما يجنى ثمرة لم يزرع بذورها ، ومن الواضح ان استخدامهما القوة والذكاء فى الدفاع عن حقوقهما يختلف عما تقوم به النســاء من عمل روتينى لا يحتاج الى ذكاء ولا بد لذلك أن يعد عملا انتاجيا ، بل يعتبر عمل الرجال بالحرى من أعمال أخذ الأشياء غصبا ، ولما كان هــذا هو العمل الذى يقوم به الرجال فى المجتمعات الهمجية ، عندما يبلغ اقصى درجة من التطور وأوسع مدى من الاختلاف عن عمل النساء ، فانهم ينظرون الى كل عمل لا يحتاج الى البطولة على أنه لا يليق بالرجال . فاذا ما استقر هذا الاعتقاد فى الأذهان نظر اليه المجتمع على أنه القانون العام للســلوك ، حتى أنهم فى هذاالطور من أطوار الثقافةليعتبرون أن أيةمهنة أو أيةوسيلة من وسائل الحصول على المقتنيات غير لائقة بالرجل الذى يحترم نفسه الا

اذا كانت تنطوى على عمل من أعمال البطولة ـ القـوة أو الخديعة • فاذا استقر هذا الاعتقاد وساد وأصبح جزءا من تقاليد المجتمع اصبح من الحقوق المسلم بها للرجل القوى البنية أن يقتل وان يدمر أى منافس يحـاول أن يقاومه أو يخادعه ، وأن يغلب ويخضع أية قوى خارجية تحاول أن تظهر نفوذها بالخروج على طاعته . وفى كثير من الجماعات البدائية يشتد تمسك الناس بهذا التفريق النظرى بين أعمال البطولة وأعمال الكدح الى درجة أن الرجل اذا قنص حيوانا فانه لا يجب أن يحمله معه الى المنزل بل عليه أن يرسل امرأة لتقوم بهذا العمل المهين .

ان التفريق بين الرجل والمرأة هو كما أشرنا آنفا تمييز بين أنواع المهن. فالأعمال التى يمكن أن تدخل فى باب البطولة أعمال لائقة وكريمة وجديرة بالاحترام . لكن ما عداها من المهن التى لا تنطوى على عنصر البطولة هذا ؛ وخاصة تلك المهن التى تنطوى على المذلة أو الخضـــوع ، مهن غير لائقـــة ومشينة وتافهة . واعتبارات الوقار والمنزلة والشرف فى تطبيقها على الناس وعلى السلوك ، لها الاعتبار الأول فى وجود نظام الطبقات وفى التمييز بينها ولهذا كان من الواجب أنذكر شيئا عن مغزاها . ونستطيع أن نشير فيما يلى الى أساسها السيكولوجى •

الانسان عامل من العوامل الضرورية فى عملية الانتخاب الطبيعى ، فهو فى نظر نفسه مركز لاشعاع الطاقة التى تبعث على النشاط • فهو عامل يرمى فى كل عمل من الأعمال الى تحقيق غرض متكامل وواقعى وغير شخصى • وهو بحكم كونه عاملا من هذا القبيل قد وهب الذوق الذى يجعله يعجب بكل عمل مفيد ويعزف عن كل جهد لافائدة منه ، ووهب الادراك الذى به يقرر قيمة العمل والكفاية ، ويحتقر التفاهة والسفه والقصور •

هذه الموهبة أو الاستعداد العقلى نستطيع ان نسميها غريزة الاتقان . وحينما كانت ظروف الحياة أو تقاليدها تدعو الى مقارنة تقليدية بين انسان وانسان من حيث الكفاية ، فان غريزة الاتقان تعمل على عقـــد مقارنات بين الاشخاص مبعثها الحسد أو المنافسة . اما الى اى حد تؤدى غريزة الاتقان الى هذه النتيجة فيتوقف الى درجة كبيرة على طبائع السكان • فأىمجتمع يعتاد الناس فيه على أن يعقدوا بين الاشخاص مقارنات تقوم على الحسد فان النجاح يصبح هدفا يسعى اليه الفرد من أجل فائدته ، بصفته الأساس الذى يقوم عليه اعتباره فى نظر الناس ، فان الناس ينـــالون التقـدير ويتجنبون الذم بأظهار قدراتهم ، ومن هنا تعمل غريزة الاتقان عن طـريق استعراض القدرة على التفوق •

وخلال هذه المرحلة البدائية من مراحل التقـــدم الاجتماعى ، حين لا يزال المجتمع يتمسك بالتقاليد السلمية ، وقد يكون قد وصل الى مرحلة

الاستقرار لكن دون أن يظهر فيه نظام الملكية الفردية ، يستطيع الفرد أن يعرض قدرته دائما بتأدية عمل يكون من شأنه تحسين أحوال الجماعة ، وأية منافسة ذات طابع اقتصادى توجد بين الأفراد فى مثل هذا المجتمع تكون فى الأغلب منافسة فى ميدان الخدمة الصناعية ، وفى نفس الوقت لا يكـون الدافع الى هذه المنافسة قويا ولا يكون مجالها كبيرا ·

فاذا تطورت الجماعة من الهمجية المسالمة الى المرحلة التى تليها فان ظروف المنافسة تتغير ، فتتغير فرص المنافسة ودوافعها تغـيرا كبيرا فى مجالها وفى الضرورات التى تحتمها ، ويأخذ نشاط الرجال طابع البطولة بالتدريج ، وتزداد المقارنة المطبوعة بالحقد بين قانص وقنص أو محارب ومحارب سهولة ورسوخا ، ويبدأ الناس يفكرون فى اقتناء كل ما يشهد لهم بالبطولة من غنائم الحرب بصفتها مظهرا من مظاهر زينة الحياة ، وينظر الناس بعين التقدير الى الاسلاب التى اخذوها خـلال عمليات القنص او الغزو بصفتها مظهرا من مظاهر القوة الخارقة ، ويصبح الاعتداء هو العمل الذى يستحق التقدير ، وتقوم الاسلاب لاول وهلة شاهدا على الاعتـداء الموفق · وتنظر الجماعات التى تجتاز هذه المرحلة من مراحل الثقافة ، الى المنافسة على انها الوسيلة التى تستحق التقدير ويستطيع بها الرجل ان يوطد مركزه فى عشيرته ، والأدوات النافعة والخدمات التى يحصل عليها الرجل اغتصابا أو كرها هى فى نظرهم شاهد على نجاحه فى المنافسة ·ومن هنا وعلى النقيض من ذلك ، ينظرون الى الاشياء التى يحصل عليها المـرء بغير طريق العنف على أنها لا تليق بالرجل ذى المكانة ، ولهذا السبب نفسه كانت تأدية العمل المنتج او العمل فى خدمة الافراد تقابل بنفس هـــذا الاحتقار . وبهذه الطريقة يبدأ التمييز القـــائم على التحاسد بين أعمال البطولة وحيازة المقتنيات عن طريق الاغتصاب من جهة وبين الأعمـــال الصناعية من جهة اخرى ، فيوسم العمل بميسم المهانة لما يلصـق به من التحقـــير ·

ويبدو أن لفظ «الشرف» لم يكن له فى تفكير الرجل المتبربر البـدائى غير التفوق فى القوة الجسمية ، وذلك قبل اختفاء مدلوله البسيط وراء حجب من المفاهيم التى تشعبت عنها ، وظهور أفكار ثانوية مشابهة لها · فلفظ « شريف » معنـــاه « قوى المراس » ولفظ « وجيـــه » معنـــاه « بالغ القوة » · والعمل الشريف ليس له آخر الأمر أية قيمة سوى انه عمل ناجح من أعمال الاعتداء ، وحيثما كان الاعتداء معناه الصراع مع الرجال أو الحيوانات فان العمل الذى يوسم بالشرف هو أولا وعـلى وجه الخصوص الذى ينطوى عـلى قـوة أكبر · والفكرة الساذجة القـديمة التى كانت تفسر جميـع مظاهر القوة على أنها من مظاهـر قوة الشخصية أو قـوة

الارادة ، تزيد من التشريف الذى كان الناس يسبغونه على صاحب القوة الاكبر • وصفات الاجلال التى يعتز بها الناس فى المجتمعات المتبربرة وبين كثير من الشعوب التى وصلت الى درجة ثقافية أرقى ، تحمل فى العـــادة طابع هذا الادراك البسيط لمعنى الشرف . فالنعوت والالقاب التى تستعمل فى مخاطبة الزعماء والملوك والآلهة غالبا ما تنسب الى الشخص الذى يراد استرضاؤه الميل الى العنف الطاغى والقوة المخربة التى لا تقاوم . وهذا صحيح الى حد ما فى بعض الجماعات الأكثر تحضرا فى وقتنا الحاضر • وأن ما نراه فى شارات الاسر العريقة من ايثارها لصور الحيوانات المفترســـة والطيور الجارحة يؤكد وجهة النظر هذه .

وعلى أساس هذا المفهوم من تقدير المتبربرين للجاه والشرف نجد أن ازهاق الأرواح ، أى القضاء على المنافس القوى سواء كان حيوانا أو انسانا، عمل شريف غاية الشرف • وهذه المـــكانة المرموقة لعملية القتل ، بصفتها مظهرا يدل على القوة الخارقة التى يتمتع بها القاتل تضفى ثوبا ساحرا من التقدير على كل عملية من عمليات القتـــل وعلى كل أداة ساهمت فيه . والسلاح أهل للاحترام واستخدامه ، حتى لو كان فى القضـــاء على أحقـر كائن من كائنات الحقل ، عمل يستحق الاحترام . وفى نفس الوقت نجـد العمل فى الصناعة أمرا محتقرا ، كما نجد تداول ادوات الصناعة وآلاتها من الاعمال التى تحط فى نظرهم من مكانة الرجل القادر ، ومن هنا يصبح العمل شيئا بغيضا •

نحن فى بحثنا هذا نفترض أن الجماعات البدائية قد مرت خلال عملية تطورها الثقافى من مرحلة سلمية أولية الى مرحلة تالية يصبح الصراع فيها هو المهنة المباحة التى تتميز بها الجماعة . ولكن هذا لا يعنى أنه كان هنـاك انتقال فجائى من مرحلة مسالمة دائمة وحسن جوار الى مرحلة تالية أو أرقى من مراحل الحياة يقع فيها الصدام للمرة الأولى ، كذلك لايعنى هذا أن كل عمل من الاعمال السلمية يختفى بمجرد الانتقال الى مرحلة الثقافة العدوانية. ونحن لانعدو الصواب اذا قلنا أن الأمر لم يخل أبدا من بعض الصدام فى المراحل الاولى للتطور الاجتماعى . فان الصراع كان يحدث فى أحيان كثيرة أو قليلة من أجل التنافس على الأنثى • والعادات التى تعرفها عن الجماعات البدائية ، وكذلك التى نعرفها عن القردة العليا ، تؤيد هذا الرأى ، كما تؤيده الشواهد التى نعرفها عن الطبيعة البشرية .

قد يعترض معترض بأن من الممكن أن مثل هذه المرحلة الأولية التى كانت الجماعات فيهاتجنح الىّ السلم لم تحدث أبداكما نفترض هنا ،فليست هناك مرحلة من مراحل التطور الثقافى تخلو من الصراع • لكن النقطة التى يدور حولها البحث هنا ليست خاصة بامكان وقوع الصراع بصفة منقطعة

أو مستمرة أو حتى بصفة دائمة الى درجة كبيرة أو صغيرة أو بصفة عادية ، ان النقطة هى ما اذا كان وقوع الصراع ناشئا عن عقلية جبلت على المشاغبة — انتشار عادة التحكم على الحقائق والأحداث من وجهة نظر الصراع ٠ ولاتبلغ الجماعة هذه المرحلة العدوانية من مراحل الثقافة الا عندما يصبح الاتجاه الى العدوان هو الاتجاه التقليدى الذى ينظر اليه بالتقدير بين كل افراد الجماعة ، وعند ما يصبح الصراع هو النغمة السائدة فى النظرة العامة الى الحياة ، وعندما يصبح تقدير الرجال والأشياء تقديرا من وجهة نظر الصراع .

لهذا نجد الفرق بين مرحلة الحياة السلمية ومرحلتها العدوانية فرقا روحيا لا آليا والتغير فى الاتجاه الروحى هو نتيجة ظهور تغير فى حقائق الحياة المادية لدى الجماعة ، وهذا التغير يأتى تدريجيا كلما سادت الأحوال المادية التى تساعد على انتشار الروح العدوانية . والحد الادنى لاى ثقافة عدوانية حد صناعى ، لان العدوان لا يمكن أن يصير هو اللاذ المعتاد والمناسب لأية جماعة أو أية طبقة من الناس الا بعد أن تكون وسائل الصناعة قد تقدمت الى درجة من الكفاية بحيث يكون هناك فرق يستحق الاصطراع — فوق مستوى الذين يكدحون من أجل الحصول على ما يقيم أودهم ٠ وعلى ذلك كان التحول من روح المسالمة الى روح العدوان يتوقف على تقدم المعلومات الفنية واستعمال الأدوات ، وكانت الثقافة العدوانية بالمثل غير ممكنة فى العصور الاولى حتى تقدمت الاسلحة بدرجة جعلت من الانسان حيوانا شديد المراس . والخطوات الاولى فى تطور الآلات والادوات هى بطبيعة الحال ذات الحقيقة ينظر اليها من وجهتى نظر مختلفتين ٠

ومن الممكن أن نعتبر حياة اى مجتمع معين حياة مسالمة طالما ان عادة الالتجاء الى التصارع لم تجعل الحرب أهم شىء يشغل تفكير الناس ولم تصبح بعد مظهر الأساس فى حياة الانسان ٠ ومن الواضح أن جماعة من الناس قد ينمو فيها الميل الى العدوان الى درجة تامة او ناقصة بحيث قد تصبح نظم حياتها وقوانين سلوكها يتحكم فيها هذا الاتجاه العدوانى . فمرحلة الثقافة العدوانية يمكن اذن أن ننظر اليها على أنها تأتى تدريجيا بسبب زيادة الميول والعادات والتقاليد العدوانية ، وهذه الزيادة التى تأتى

نتيجة لتغيرات تطرأ على ظروف حياة الجماعة تساعد على احتفاظها بسمات الطبيعة البشرية ، والتقاليد ومعايير السلوك التى تساعد على خلق حياة عدوانية بدلا من حياة مسالمة .

والدليل على صحة النظرية التى تقول بأنه كان هناك مثل هذه المرحلة السلمية فى الثقافة البدائية نستمد اكثره من علم النفس لا من علم الاجناس البشرية ، ولا يمكن أن نتناوله هنا بالتفصيل ، وسوف نتناول بعضه فى فصل تال من هذا الكتاب حين نناقش رواسب الملامح البدائية للطبيعة البشرية التى لا تزال باقية فى ثقافتنا الحديثة .